العبور الى الضفة الأخرى

ملخص اول :

يعرف اهالي قرية الرحمانية معنى العبور في قارب « أبو مهيله » الى الضفة اليسرى من النهر ـ هي بداية لرحلة متعبة ـ نحو الناحية تبدأ في الصباح مع لفط الآدميين والمواشي واقفاص الدجاج واكياس اللبن المكدسة في جوف زنابيل الخوص الجافة ، وحينما يأتي الغروب تنتهي الرحلة ويعود الفلاحون محملين بلفائف القماش الرخيصة وهي تلمع بألوان صارخة برافة .. عندها تمتلىء ايادي الاطفال بأصابع العروس .

* * *

سطح مياه النهر يرسل انعكاسات متوهجة وصور اشجار النخيل تهتز مع اهتزاز السعف الاخضر وغيوم رمادية تقطعت على امتداد واسع من سماء القرية ، وعلى طول امتداد الاكواخ الطينية المقوسة بحصران يابسة ملطخة بالطين الجاف الاملس ، والسدة الترابية تبدو كخيط باهت الاصفرار ، انتشرت من حوله ازهار نبات الكسوب البنفسجية وهي تمتص بقية واهنة من قرص الشمس بنصف انحناءة قسرية أظهرت القرص وكأنه مبتور من نصفه ، غير ان النصف الاخر انحدر الى اسفل باحمرار قان تداخل في جوف الافق بمستوى ماكنة ضخ الماء وهي تدفع من بطنها اصواتا مليئة بالدخان .. هنالك في النهر كان القارب يتحرك على لسان الماء بأيقاعات محكمة ويندفع بنعومة مع اندفاعة المجدافين وهما يشجان رأس التيار بمهارة. ثمة فقاعات مفاجئة تبرز من الخلف والمقبضان المدوران في نهاية كل مجداف تصطدمان في باطن كفيه فتحتكان بالنتوءات اللحمية المتصلبة وتتقلص خطوط خضر بين جلدة ذراعيه ثم تأتي الحركات متقنة خفيفة تنتزع الاعجاب من عيون النساء والاطفال وتظل الافواه فاغرة بابتسامة ارتياح عريضة وتتوضح المسافة عند الجرف وقبل ان تحس الاجساد بالرجة الساحلية المعتادة ، تتكشف الارض الطينية كشمع احمر منصهر وياخذ شبح رجل بالتكشف المفاجيء عند الجرف بجانب قارب طويل . ويتوقف كل شيء عن الحركة .. القارب .. الانفاس .. رجفة العيون الا ان سقوط خيط الموج يتلوى بتكسرات مائية سرعان ما تتلاشى عند حافات الرمل الرطبة .. ثم تنغرس في العيون سهام وخزة فتنفلت اصوات سريعة مشحونة باستغراب « هذا بديوي ؟! » .

ـ اي بديوي والعبور منذ الآن بعهدتي .

تصلبت الرؤوس وامتدت الايادي نحو اطراف الثياب تسحبها خشية ان تلامس الماء وسرعان ما تعالى همس خافت « بديوي الحرامي .. شيء عجيب » ..

ـ والشط منذ الان بيد الحكومة .

دفع بكلماته ثم وقف بانتصاب متشنج يمتد صموده من غرور دفين، لكن الضربة كانت بلا صوت اندفعت ترتطم حروفها في اذن « ابومهيله» حتى أحس وكأن رصاصا مفاجئا يخترقه .. ارتعش .. تسارعت دقات واهنة بين ضلوعه النحيفة وشعر بانها تنفتت بين جنبيه هشة لينة فاخذت اغماءة تسحبه لكنه صرخ كالملدوغ « لا .. لا .. الشط للناس .. الشط للخلق .. »

تناثرت ضحكات هستيرية .. هازئة .. اصطدمت به كقذائف صخرية ملتهبة ترتطم بوجهه ونهشه اضطراب مفاجيء عندما قال له بديوي « تستطيع ان تقول ذلك في الناحية ..» .

صعد الدوار بسرعة الى رأسه وبدأ يسقطه في متاهات باردة وتمسكه بين حدود ثلجية حتى اطرق صامتا متسائلا في سره « الناحية ! ما علاقة الناحية بالمعبر ؟!

اربعون عاما ولم يقل له احد كلاما مثل هذا ..! » .. مسح العرق المتصبب من جبهته بغزارة ، ثم قوس عضلات رفيته بتشنج تسرب الى اوصاله وهو يتصفح ورقة بيضاء مستطيلة مكتوبة بحروف زرق بآلة الطابعة « انظر .. انه عقد الايجار .. عشرون دينارا في السنة .. من يدفع يأخذ المعبر » .

تلقى « ابو مهيلة » الضربة بصرامة لكنه ظل مطرقا يبحث عن خيط يمسك به فتمتم بفتور :

ـ لكني هنا منذ اربعين عاما .. اعبر نساءكم واطفالكم .. اعبركم جميعا بأمان .. أنظروا .. انظروا الى المسامير في يدي .

توقف .. سقط في هم عميق حين لاحظ الصمت يحفر خطوط الخوف بين تجاعيد الوجوه ثم تحركت الاقدام تتفرق بينما كانت ضربات غاضبة تستقر فوق رأس العمود الحديدي المفلطح ، والحبل المنقع ينسحب نحو الجرف بصعوبة .

ملخص ثان :

ذات يوم وقبل أن يستأجر « بديوي » المعبر ، كان معلم المدرسة في القرية يلقي بأسئلته على ابي مهيلة ، وكانا جالسين تحت شجرة توت كبيرة عند جدول الماء وتحت فيء ، واسع ظلل المكان كله .

سؤال : « هل تزوجت في حياتك ؟ .. هل لك ابناء ؟ »

جواب : « هؤلاء كلهم اهلي ، وابناؤهم ابنائي » .

سؤال : « أين تتغدى ؟ .. اعني أين تأكل وتشرب ؟»

جواب : « في اي بيت أشاء .. اشرب اللبن هنا .. اكل الخبز هناك .. »

سؤال : « وأين تنام ؟ »

جواب : « في جوف الكوخ الطيني عند عامل مضخة الماء »

*

الهواء يحرك خصلات شعره الأشيب عندما كان ينجه بخطواته نحو الحقول في عمق القرية ، اقدامه تجول بين اكوام البيادر المتالقة تحت وهج الشمس . الفلاحون يركضون وراء الحمير وهي تدوس المحاصيل في حلقات رقص دائرية . خلف اكداس الحصاد نساء من القرى المجاورة جئن للمشاركة في حصاد القمح وحشد من الرجال تذرو حبات الحنطة في اتجاه حركة الريح . لامست جسده برودة عميقة وقيء اصفر يحرق أمعاءه . عندما لاحظ الثقل يسيطر على الوجوه تساءل في نفسه « ما الذي صنعته لهؤلاء حتى استحق كل هذا الجفاء ؟ » .

مشى مفكرا .. فكر بجهد .. فكر حتى ادرك ان خطواته تقف قرب تنور « ام هاشم » كانت تخبز ورائحة الخبز نفذت اليه حادة لذيذة، لكن تحيتها كانت باردة .. ثقيلة .. فاترة .. جهد مرة اخرى في التساؤل .. ، تلعثم قليلا ، بلع ريقه .. نطق بصعوبة : « لماذا ينام الثقل في الوجوه يا أم هاشم ؟ »

ـ بسبب السرقة التي حدثت في بيت عيدان .

قالت ذلك ثم ادارت رأسها لتضع قرصة الخبز في حلق التنور واذناها في انصات الى ما سيصدر عنه .. ثم قال :

ـ لقد استجوبوني في الناحية وثبتت براءتي .

ـ لكن بديوي يصر على انهامك .

ـ باي شيء ؟

ـ بالتعاون مع الحرامية

صرخ بحدة متألم « لماذا .. لماذا .. لماذا فعل ذلك ؟»

ـ يقول نكاية به .. ألم يأخذ المعبر منك ؟

ـ المعبر .. المعبر ليذهب المعبر الى جهنم ..

سكت لحظات ثم اقترب من التنور الذي كان يمور بلهب نار متصاعد .. أخذ رغيف خبز ورفعه الى اعلى ثم وضع يده فوق الرغيف صائحا « اقسم لك يا أم هاشم أقسم بهذا . ، ان فدمي لم يطأ القارب منذ ان منعوني عنه ... ، لست خائفا من أحد ، لكني واثق بعودة القارب لي .. غدا او بعد غد سيعود .، وسينكشف كل شيء » ثم وضع رغيف الخبز في مكانه واعاد يقول بحزن « المعبر لا يهمني .. يهمني هؤلاء الناس..رضاؤهم .. البهجة التي تلون جباههم ..» .

ثم اجهش ببكاء متواصل كتشيج الاطفال ، لكن يد ام هاشم امتدت اليه فسحبته الى داخل البيت بحنان .

ملخص ثالث :

منذ ان وجد طاهر النوتي على مدارج النهر وعانقت عيناه النور كان الكل ينادونه بـ « ابو مهيلة » وكلما ركبوافي القارب كانوا يرددون اغنية اقترنت باسمه « يابو مهيلة ياملاّح .. جر حيل بالك تستراح »

وظلت هذه الاغنية تعني عنده اشياء مهمة .

*

عصفت الرياح وجه المياه بقسوة فتوغلت الى اعماق النهر تفجره امواجا فائرة ، تتصاعد الى مستوى المرتفعات الطينية ثم تعود الامواج متناثرة بين كتل الهواء المغبر وتعود الحركة من جديد فتمزق بطن الماء الى اشلاء متلاطمة تحدث صوتا صاخبا يختلط مع حفيف الاشجار والنخيل المتسامقة على طول امتداد النهر ، وبسيوف هوائية حادة تخز الوجوه كانت تضيع موجة الصخب العاتي وتختلط مع نباح الكلاب وصياح الديكة وبين حلكة ظلام موحش ممتد كانت اجساد ثلاثة تبرز بانفراد احد الاجساد لرجل والجسدان الاخران لامرأتين احداهما عجوز جلست على الارض وانين حاد متواصل يأتي من المرأة الاخرى لكنه سرعان ما يضيع في خضم العاصفة فلا يكاد يسمع منه الا تأوه واهن ، في حين كان الرجل يصرخ بتوسل « امرأتي تحتضر .. »

تلاشت كلماته الصارخة بين طيات الريح واحتضنته كلمات فاسية اطلقها بوجهه بديوي بلا مبالاة :

ـ أمجنون أنت ؟.. من يقدر على العبور الان ؟.

ـ ولكن امرأتي تحتضر .. ستموت ..

ارتفع الانين بتواصل سميك « آه .. آه .. ستموت ، رأسي ينفجر .. »

احس الرجل بنار تشتعل في جسده عندما تناهى اليه انين زوجته ثم اسرع ماسكا بتلابيب بديوي وصرخ بحدة بوجهه حتى طالت اصوات اخرى كانت تحيط بالمكان .

ـ يجب أن تعبر يا بديوي .

ـ ادرك بالتضامن حوله يطمئنه .. انتفض رافضا المحاصرة :

ـ ليست حياتي هينة عندي .

وانسحب عن الجمع ، تجره قدمان خائفتان نحو المرتفعات لكن الرجل اسرع خلفه يمسكه يسحبه .. يتدافعان .. ينسحب مرة اخرى! عندها قذفت المرأة العجوز بصقة في وجهه قائلة : « او حرامي.. لو حرامي لعبرته » .

افرغ (بديوي) تلابيب ثوبه وغادر ساحبا قدميه وصوت الانين يشتد باستمرار وتألم حاد يتدحرج من كل العيون ورغبة مجنونة تسيطر على الوجوه المستمرة بسكون موحش استطالت به التغطيات اللامحدودة في حزن عميق وشعرت المرأة العجوز برغبة عارمة الى البكاء لكي تمسح الالم والاهات والتوجع .. نعت بفنائيه حزينة فانصت كل شيء يسمع « يا بو مهيلة ياملاّح .. جر حيل بالك تستراح

« جر حيل بالك تستراح جرحيل عنا النذل راح »

وراح الصوت يرتطم بالاكواخ فيلامس السطوح والخطوط الاتية الى النهر من نقطة انسحب عنها الماء .. ظهر طويلا .. ثابتا ... ثم اسقط المجدافين فأحدث صوتا اطلق الانفاس المتقطعة حتى قال احدهم « ابو مهيلة نخشى ان تغرقوا ؟ »

رد بعزم واضح :

ـ لا .. لا تخشوا شيئا ابدا ما دام القارب في مواجهة الريح.

بغداد **نعمان مجيد**

صدر حديثا

وسام على صدر الميليشيا

للشاعر خالد ابو خالد

دار الآداب